مقدمة
في تاريخ الممالك الإسلامية
في السودان الشرقي

١٤٥٠ - ١٨٢١

يوسف فضل حسن
جامعة الخرطوم

SUADTek Limited
Khartoum
٢٠٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمدُ للّه فَاتِحَةُ كُلِ خَيْرٍ﴾

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

معهد البحوث والدراسات العربية

الجامعة العربية - القاهرة ١٩٧١م

الطبعة الثانية

الدار السودانية للكتب- الخرطوم

١٣٩٢ - ١٩٧٢م

الطبعة الثالثة

مطبعة جامعة الخرطوم

دار جامعة الخرطوم للنشر

الخرطوم ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩م

الطبعة الرابعة

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢م

سوداتك المحدودة

٢٠٠٣

الفصل الثاني

العبد اللاَّب

١. العبداللاّب وسقوط مملكة علوة :

كان من المتفق عليه حتى عهد قريب أن سقوط سوبا قد تم نتيجة اتفاق ثنائي بين العرب والفونج أو بين عبد اللّه جمّاع وعمارة دونقس.[١] وعلى إثر هذا الاتفاق قام ما يسميه البعض بالحلف السنّاري الذي ظل يحكم الجزء الشمالي من السودان الشرقي بين ١٥٠٤ و ١٨٢١م. ولكن ترجح بعض الدراسات الحديثة التي ابتدرها الدكتور ب. م. هولت أن سقوط علوة تم على أيدي قبائل عربية بقيادة عبد اللّه جمّاع[٢] وهذا الرأي رغم ما به من ثغرات يستحق الاهتمام والدراسة المتأنية.

وفي رأيي أن الخلاف بين الرأيين يرجع أساساً إلي محاولة أقدم رواية سودانية خطية وهي رواية أحمد كاتب الشونة أو تاريخ الفونج[٣] التوفيق بين الروايات الشفاهية المتداولة جيلاً بعد جيل والتي تؤكد دور العرب في محاربة العنج، اسم إحدى القبائل التي كانت تسكن مملكة علوة، والتي أطلقها العرب على كافة سكان تلك المملكة، وبين واقع الأمر ممثلاً في الحلف الفنجاوي العبداللاّبي الذي يعطي الفونج الكلمة الأولي في إدارة مملكة الفونج ويعطي العبداللاّب مكانة مرموقة، ولكن دون الإشارة إلى الهزيمة التي لحقت بهم على أيدي الفونج في أربجي في أوائل القرن السادس عشر .

ومفتاح هذا التناقض يوجد في أقدم إشارة للعبداللاّب وهي رواية الرحالة الأسكتلندي جيمز بروس الذي زار سنّار، حاضرة مملكة الفونج، سنة ١٧٧٢م والذي استقى معلوماته من أحمد سيد القوم أحد كبار شخصيات البلاط الفنجاوي. ورغم أن كتابات بروس لا تخلو من عدم الدقة في جملتها فإن قدمها ورواجها في بلاط الفونج يعطيانها وضعاً خاصاً.

أ. يقول بروس في معرض حديثه عن أصل الفونج وتاريخ مملكتهم: "إن أمير

هذه البلاد من بني قريش ويلقب بود عجيب... وهو زعيم العرب بأسرهم، وكان يجبي منهم من الضرائب ما يكفيه للمحافظة على سلطته ونفوذه، وما يمكّنه من استتباب الأمن وتنفيذ قوانينه في المسائل العامة... ومقر الأمير في قرّي... وكان لهذا الزعيم العربي جيش كبير من الفرسان يساعده على جمع الضرائب... واستمر حال الحكومة هكذا في هذه البلاد الشاسعة والتي تمتد من حدود مصر حتى حدود الحبشة، حتى بداية القرن السادس عشر".

وفي سنة ١٥٠٤م توجهت أمة من السود، لم تكن معروفة من قبل وكانت تسكن على الشواطئ الغربية للنيل الأبيض على خط عرض ١٣ آ شمال، في مجموعة كبيرة من الزوارق أو المراكب في غارة على مديريات العرب وفي معركة بالقرب من أربجي هزموا ود عجيب (٤) وأرغموه على التسليم بشروط أملوها. وهي أن يدفع العرب للفاتحين نصف ما يملكون من ماشية في مبدأ الأمر ومن بعده سنة تلو أخرى، وعلى هذه الشروط يتمتع العرب بسيادتهم على ممتلكاتهم السابقة دون مضايقة، وأن يحتفظ ود عجيب بمكانته واعتباره، على أن يظل دائماً على استعداد تام لاستعمال القوة لإرغام العرب البعيدين في حالة رفضهم لدفع الضرائب المفروضة عليهم، ومن ثم صار ود عجيب مندوباً عنهم. وهذا الشعب الأسود يعرف في بلاده بالشلك... ونقلوا مقر حكم ود عجيب إلى أربجي ليكون تحت مراقبتهم المباشرة. (٥)

يؤكد نص بروس هذا حقيقتين هامتين الأولى، أن العرب كانوا يسيطرون بزعامة ود عجيب على بلاد النوبة ومملكة علوة يساعدهم في ذلك طائفة من مشايخ القبائل.(٦) الثانية أن الفونج قد هزموهم في معركة أربجي سنة ١٥٠٤م ومن ذلك الحين صار العبداللاّب ينوبون عن الفونج في حكم الجزء الواقع شمال أربجي.

ب. ونجد تأييداً لتغلب العرب على تلك المنطقة في الأخبار التي جمعها كونيق (Koenig) عن تاريخ كردفان ودارفور في أوائل القرن التاسع عشر والتي

يرجع أصل بعضها الى مخطوطات ترجع للقرن الخامس عشر: "تقول بعض الروايات إن سلاطين دارفور قد فقدوا سيطرتهم على كردفان منذ أمد، وعند غزو أحمد المعقور كانت تلك المديرية تحت ظل الإسلام وتابعة لممتلكات ود عجيب الكافولي [الكافوته]الذي كان يحكم كل المنطقة الواقعة بين دنقلا العجوز وسواكن التي يسكنها عرب الحدارية ومنطقة جبال الوثيين في الجنوب أي جبال النوبة".

"وفي سنة ١٤٧٤م [كذا] عند موت عجيب الكافوته، الذي ما زالت قبته موجوده في قرّي، قام عمارة "دنكيس "أبو نايل Amara Dinkis Abou Nail أول سلاطين سنار ومن شعب الفونج، مستغلاً الخلاف الذي نشب بين العرب الرحل الذين ينتشرون في السهول وقاطني الجبال الذين يكونون معظم سكان كردفان فغزا تلك المديرية وأضافها إلى مملكته".(٧)

هذه الرواية رغم حداثة تسجيلها (١٨٢٩م) وما تدعيه من أن عجيب الكافوتة قد مات في عام ١٤٧٤م، وهو تاريخ متقدم جداً، يجب أن نأخذها بحذر، إلا أن تسجيلها في كردفان وهي منطقة بعيدة عن نفوذ العبداللاَّب والفونج التقليدي يعطيها بعض الاعتبار. ومهما كانت قيمتها فإنها توضح أن العبداللاَّب كانوا أسبق في حكم تلك البلاد من الفونج.

ج. ونجد الروايات التي تعزو سقوط مملكة سوبا إلى جهد مشترك بين الفونج والعبداللاَّب متداولة في المنطقة الواقعة بين أربجي وقرّي، التي كانت تخضع لنفوذ العبداللاَّب المباشر في عهد الفونج.(٨) وقد ذُكر هذا الأمر في ثلاث مجموعات من المصادر المختلفة هي **تاريخ ملوك سنَّار** و **مخطوطة تاريخ العبداللاَّب** والروايات الشفاهية التي جمعتها شعبة أبحاث السودان بجامعة الخرطوم حديثاً وسأتناولها بالدراسة على الترتيب آنف الذكر.

ذكر غزو سوبا في أكثر من صيغة في كتاب **تاريخ ملوك سنَّار** أو **مخطوطة كاتب الشونة** التي ألفها أحمد بن الحاج أبو على (١٧٨٤- ١٧٨٥م) وتوفى بعد

١٨٣٨م ونقحها أربعة من بعده هم عبد القادر ابن الزين المشهور بالزبير ود ضوَّه (١٨٢٦ -١٨٨٢م) وأحمد الحاج محمّد جنقال والشيخ إبراهيم بن عبد الدافع (١٨٠٠-١٨٨٢م) والشيخ الأمين الضرير (١٨١٥ - ١٨٨٥م).(٩)

د. جاء في واحدة من أقدم نسخ **مخطوطة كاتب الشونة** (نسخة القاهرة) والتي نشرها الأستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل:"فأول ملكهم مما تداول في ألسنة الخلق، أن ابتداء أمر الفنج كانوا بمحل يعرف بلولو .. ثم إنتقلوا إلى جبل مويه. فلما أراد اللَّه إظهار أمره وتسليطهم على خلقه، وكان لهم بقر وفيها ثور فحل.. فجعل الثور يسري بالليل إلي غابة سنَّار ولم يكن بها عمارة وكانت تسكنها جارية تسمى سنَّار مقيمة على جرف وكان الثور يرعى في تلك الغابة فتبعوه فنزلوا من مويه. وقطع أشجارها الملك عمارة دونقس وهو أولهم، وصار ملكهم بها، بعد أن قاتل العنج مع عبد اللَّه القريناتي القاسمي أبي عجيب الكافوتة، ورجع إليها وبقي بها ملكه فيها. وشَيَّخَ عبد اللَّه المذكور في قرِّي".(١٠)

وتفصِّل كل من مخطوطة باريس ومخطوطة المتحف البريطاني التي درسها هولت، وما نشره نعوم شقير نقلاً عن الشيخ إبراهيم بن عبد الدافع، والنسخة التي حققها مكي شبيكة، تفصِّل كل واحدة منها طبيعة الحلف الذي أدى لسقوط سوبا. ولعل خير ما يوضح هذه النقطة هي مخطوطة باريس، وهي في الأغلب من تنقيح الشيخ الزبير ود ضوَّه، و تتفق الأخيرة مع مخطوطة المتحف البريطاني، ونسختي نعوم شقير ومكي شبيكة في أنها تشمل وصفاً دقيقاً لمدينة سوبا نقلاً عن ابن سليم الأسواني، وتمتاز عليهم بأنها تشمل نبذة طويلة عن دخول العرب السودان، نقلاً عن ابن سليم الأسواني أيضاً، ولأهمية ما جاء في تلك المخطوطة أرى نقل الجزء الموافق لما نحن بصدده جملة: "إن أول ملوك الفونج عمارة دونقس وابتداء أمره في أول الحال، كان جماعة مقيمين بمحل يعرف بلولو، أقاموا به مدة ولم يزالوا في زيادة الجموع ثم انتقلوا إلى جبل مويه المعروف واقاموا به مدة وبلغهم خبر أن جارية تسمى سنَّار مقيمة على شاطئ بحر النيل

فانتقلوا إليها وزادت جموعهم. واتفق عمارة المذكور مع عبدالله جمّاع القريناتي من عربان القواسمة. وعبدالله المذكور هو والد الشيخ عجيب الكافوته جد أولاد عجيب، وتمت كلمتهم على محاربة النوبة وهم الفَنَجَ [العنج]ملوك سوبا وملوك قرّي، فتوجه عمارة وعبدالله جمّاع المذكوران بما معهما من الجيش وحاربوا الفنج [العنج]وقتلوهم وأخلوهم من سوبا، وتوجهوا إلى القرى فقتلوا ملكها ولما تم لهم النصر على النوبة واستولوا على محلاتهم اتفق رأي عمارة بأن يكون هو الملك عوضاً عن ملك علوة التي هي سوبا كونه هو الكبير، وأن عبدالله يكون في مكان ملك القري [كذا]. فعند ذلك توجه عمارة إلى سنّار واختطها وذلك في سنة عشر بعد التسعمائة وجعلها كرسي مملكته، وأن عبدالله جمّاع كذلك اختط مدينة قرّي التي عند جبل الرويان بالشرق وجعلها كرسى مملكته أيضاً. وكان عمارة وعبد الله كالأخوين إلا أن رتبة عمارة أعلى ورتبة عبدالله دونه إذا كانا حاضرين فيكون المقدم، وإذا غاب عمارة فيكون عبد الله هو المقدم على الجميع ويعامل بما يعامل به عمارة. ولم تزل تلك العادة جارية بين سراريهم إلى انقضاء مملكتهم".(١١)

رغم اختلاف هذه النسخ في الأسلوب وبعض التفاصيل فإنها تتفق إلى درجة كبيرة في مضمونها خاصة في كيفية حكم البلاد ومن ثم سأركز على السمات المميزة لها.

د. قال الشيخ إبراهيم بن عبد الدافع: "وانتقل الفونج من جبال الجنوب إلى جبل مويه. وكان كبيرهم عمارة دونقس وفي جوارهم قبيلة عرب جهينة تعرف بالقواسمة وعليها شيخ شديد البأس يقال له عبد الله جمّاع، فاتحد عمارة وعبد الله المذكوران على ضم كلمة المسلمين، ومحاربة النوبة ونزع الملك من أيدي العنج فحشدا الجيوش، وهاجما العنج في سوبا فقتلوهم شر قتلة وخربا سوبا ثم سارا إلى قرّي فقتلا ملكها واستوليا على البلاد كلها وذلك سنة ٩١٠هـ". (١٢)

و. جاء في نسخة مكي شبيكة: "... ذكروا في التواريخ التي رأيتها أن أول من

تولى وملك من ملوك الفونج الملك عمارة دونقس .. وكان العنج قبله تغلبوا على النوبة وجعلوا مدينة سوبا مركز سلطنتهم". " ثم يعطي الكاتب وصفاً طويلاً لسوبا -نقلاً عن إبن سليم الأسواني، وحالة البلاد الدينية وانتشار الإسلام فيها، نقلاً عن طبقات ود ضيف اللّه: "أعلم أن ابتداء عمارة دونقس في أول الأمر جمع له أشخاص وما زالوا في زيادة وهو مقيم بهم في جبل مويه.. حتى حضر عنده عبد اللّه جمّاع من عربان القواسمة.. وتمت كلمتهم على محاربة العنج ملوك سوبا وملوك الغرب (صوابها القري) فتوجه عمارة وعبد اللّه جمّاع بما معهم من الجيش وحاربوا ملوك سوبا وملك الغرب (القري) وانتصروا عليهم.. وأن عبد اللّه جمّاع يكون في مكان ملك الغرب (القري) واختط مدينة قرّي الكائنة عند جبل الرويان".(١٣)

ز. تتفق نسخة المتحف البريطاني اتفاقاً شبه كامل مع نص شبيكة إلا أنها تستعمل كلمتي (ملوك القري) و(ملك القري) على التوالي بدلا من (ملوك الغرب) و (ملك الغرب). و(ملوك القري) هم ملوك المقرة وليس الغرب كما تبادر لبعض النساخ، أو قرّي غير المعرفة بالألف واللام إذ أن تلك المدينة اختطها عبد اللّه جمّاع باتفاق سائر الروايات، ولم يعرف لها تاريخ قبل ذلك الأوان.(١٤)

يستدل من هذه النصوص أن المؤلف يستعمل كلمتي النوبة والعنج في شيء من عدم الدقة كأنهما مترادفتان، وحقيقة الأمر أن لكلمة النوبة في المصادر العربية معنىً محدداً وآخر عاماً. فنجد اليعقوبي الذي كتب في نحو سنة ٨٩٧م يطلقه على سكان مملكتي المقرة وعلوة، ويوافقه في ذلك المسعودي بينما يطلقه ابن سليم الأسواني على سكان المريس، الجزء الشمالي من المقرة دون سواهم. ثم استعمل العرب المهاجرون هذا اللفظ للدلالة على كل الشعوب، غير العربية والبجاوية، التي سيطر عليها الفونج، بينما أطلقت كلمة الأنج (أي العنج) وهذا رسمها في المصادر العربية **كنخبة الدهر**(١٥) على إحدى القبائل التي تسكن الجزيرة في عهد مملكة علوة. وعم انتشار هذا اللفظ حتى صار علماً على كل

الشعوب التي كانت تسكن السودان وخلفت آثاراً مهمة. ومع هذا كله فإن المرء ليجد فصلاً دقيقاً بين اللفظين في الروايات الشعبية إذ يطلق لفظ النوبة على عامة السكان، بينما تطلق كلمة العنج على سكان مملكة علوة عامة وملوك سوبا خاصة وهو ما تؤكده المخطوطات. فتقول **مخطوطة كاتب الشونة** "بعد أن قاتل العنج مع عبد اللّه القريناتي"وتروى نسخة باريس: "على محاربة النوبة، وهم العنج ملوك سوبا" وتذكر نسخة شبيكة: "وكان العنج قبله تغلبوا على النوبة.. وجعلوا مدينة سوبا مركز سلطنتهم.. وتمت كلمتهم على محاربة العنج ملوك سوبا". [١٨]

فإذا أبعدنا الإضافات التي أدخلها منقحو **مخطوطة كاتب الشونة** على سائر النسخ (عدا مخطوطتي فيينا والقاهرة، أقدم نصين لها) نقلاً عن ابن سليم الأسواني نجد أنها تتفق في مضمونها في أن الفونج والعبداللاَّب قد اتفقا على مقاتلة العنج ملوك سوبا ويدخل في ذلك ضمناً شعوبهم من النوبة. ولا أرى غضاضة في أن يكون العنج قد تغلبوا على النوبة كما جاء في نسخة شبيكة. إلا أن النُسخ المنقحة تبرز صعوبة أخرى وهي كيف يتسنى للفونج والعبداللاَّب هزيمة (ملك القرى) أي المقرة مع أن تلك المملكة قد سقطت في أيدي العرب في سنة ١٣٢٣م. واتفق مع البروفسير هولت في أن محاولة ربط ما نقل عن ابن سليم الأسواني (٩٦٩م) كأنه حدث في القرن الخامس عشر مع ما جاء في **مخطوطة كاتب الشونة** قد أوقعهم في سوء فهم لما ورد في **خطط** المقريزي وترتب عليه خطأ جسيم .

أما مخطوطة تاريخ العبداللاَّب فقد وصلتنا في نسختين من تأليف عبد اللّه بن الأرباب الحسن بن شاور بن عجيب بن أُونسة بن الشيخ شمام بن عجيب الثالث من أسرة العبداللاَّب، وكان والده كاتباً في حكمدارية غردون باشا. وتعتمد النسختان على روايات شفوية لا تبعد كثيراً عن مضمون الأخبار التي جاءت في تاريخ ملوك سنَّار. وورد في أقدم الوثيقتين وترجع إلى سنة

١٩١٥م[١٦]أن المؤلف سمع ما بها من المتقدمين كأبيه وجده وغيرهما. وذكر في الوثيقة الثانية (التي يرجع تاريخها إلى سنة (١٩٣٥م) [١٧] أن المؤلف اعتمد على روايات والده الذي كان صديقاً للشيخ إبراهيم عبد الدافع، أحد منقحي **مخطوطة كاتب الشونة**، وغيره من العبداللاَّب.[١٨]

ح. ويهمنا من الوثيقة الأولي قولتها: "إن الشيخ عبد اللَّه جمَّاع هذا الشهير بالقرين هو الذي كان وزيراً لملك العنج بمدينة قرِّى مدة ملكهم لأنه كان ريس عموم قبائل العرب بالسودان. ولما تطاولت جنود العنج على ظلم العرب بالمرات العديدة اتفق مع أبناء عمه فحول العباسيين بإزالة ملك هذا الظالم، وانعقد إجماع الجميع مع ساير العرب على هذا الأمر وعاهدوه على حرب ملك العنج وبذلك لقب بعبد اللَّه جمَّاع لأنه جمع القبائل على هذه الحرب مع الملك عمارة دونقس الأموي المقيم بجبل مويه، وبعدها جمع الجيوش العربية ودارت الحرب بين عبد اللَّه جمَّاع وبين ملك العنج المقيم بقرِّي. وكانت جيوش الفريقين كثيرة لا تكاد تحصر بالعد وقيل أن الشيخ عبد اللَّه كانت جيوشه تبلغ بالعد سبعين ألف ٧٠,٠٠٠مقاتل. ووقعت بين الفريقين حرابات عديدة حتى قتل ملك العنج بقرِّي واستولى على ملكها عبد اللَّه جمَّاع وأسس ممالك تحت رياسة أبناء عمه العباسيين كما هو معلوماً لأهل التواريخ وأخذ من خزائنه أموالاً جزيلة كمثل فضة وذهب وجواهر وعقد اسمه عقد الهيكل أصله من ذهب مرصع بالجواهر واليواقيت وتاج ملكه المرصع أيضاً بالجواهر واليواقيت وأن العقد والتاج المذكورين كانوا يتوارثونه [كذا]ملوك العبداللاَّب إلى زمن أحمد باشا أبو أدان الوزير بالسودان من الوالي محمد على باشا الخديوي ... (الذي) أخذهما وأرسلهما للسلطنة العثمانية".[١٩]

ط. وجاء في الوثيقة الثانية المسماة **بواضح البيان في ملوك العرب والسودان**: "الشيخ عبد اللَّه جمَّاع بن الشيخ محمد الباقر ولقب بجمَّاع لجمعه القبائل وهو من أشرف بيوت العرب في السودان وكانت الرئاسة والسيادة

لأجداده... فاستطاع لما أوتى من الرأي السديد والغيرة الدينية استمالة جميع قبائل العرب الموجودة بالسودان وتوحيد كلمتهم تحت سلطان يدير شئونهم... وينقذهم من العنف الشديد الذي أحاط بهم من ملوك العنج وصار يفتح مدائنهم الواحدة بعد الأخرى. ثم رأى أنه من الأوفق أن يتعاهد مع ملك الفونج المسمى عمارة دونقس المقيم بجبال النوبة بجهة لول، وتعاهدا على أن يمده الفونج بنجدة من عساكره، وتجهز بجيوش جبارة من العرب وتقدم لحرب العنج بهذا الجيش العظيم، وجالدهم في عدة وقائع يطول شرحها حتى انتصر عليهم، وفتح البلاد من أي جهة في الشمال إلى سوبا وقتل ملكهم المسمى علوة [كذا]. وكان ملك العنج قائد عظيم يسمى حسب اللَّه ففر ببقية الجيش إلى قرَّي التي بها سور عظيم في الجبال فتحصن به ثم لحقه عبد اللَّه جمَّاع وحاصره حتى سَلَّم، وبعد ذلك خضعت له جميع بلاد السودان إلى جهة البجة من شواطئ البحر الأحمر التي فتحها ابنه الشيخ عجيب بعده. واستحوذ على غنائم كثيرة منها تاج الملك المرصع بالجواهر وعقد الهيكل المفصَّل بالدر والياقوت الذي صار يتوارثه العبداللاَّب إلى أن استلمه أحمد باشا(٢٠) والي السودان الأول من الشيخ إدريس ناصر، من الآلات الموسيقية الأزمار والشراتي والدنقر. ثم اقتسما الملك فكانت الجزيرة فقط لعمارة دونقس الذي انتقل من الجنوب، أي من جبال الفونج مقر مملكته واختط سنَّار عاصمة له وجميع أجزاء السودان الأخرى للشيخ عبد اللَّه جمَّاع فاختار مدينة قرَّي عاصمة لمملكته الشاسعة.. وملك عبد اللَّه جمَّاع ستين سنة وتوفى في أوائل القرن التاسع". (٢١)

ورغم حداثة هذه الروايات فإنها تمثل وجهة نظر العبداللاَّب أكثر من غيرها، وتتفق مع صيغ **مخطوطة كاتب الشونة** المختلفة في أن الفونج والعبداللاَّب قد اتفقا على حرب العنج، وتهمل الوثيقة الأولى أمر إقتسام إدارة المملكة بينهما. ويظهر جلياً من هاتين المخطوطتين، وغيرهما من الروايات الشفاهية التي سأتعرض لها فيما يلي، أن عبد اللَّه جمَّاع زعيم القبائل العربية

(بل وزير ملك العنج حسب منطوق إحدى الروايات) قد أخذ بزمام المبادرة لمّا تطاول جنود العنج وكثر جورهم فجمع القبائل العربية ووحد بينها لحرب العنج. ثم اتفق مع عمارة دونقس أن يمده بعون عسكري في تلك الحرب، وبعد حرب طاحنة انتصر عبد اللّه جمّاع على العنج. وتدل هاتان المخطوطتان أن عدد العرب الذين استقروا بمملكة علوة كان كبيراً للحد الذي يجعلهم يفكرون في التخلص مما لحق بهم من ظلم. كما توضحان أن العبداللاّب قد ورثوا عقد الهيكل والتاج عن ملوك العنج وظلوا يحتفظون بشارات الملك هذه حتى أوائل العهد التركي المصري.

تعكس الروايات التي جمعتها شعبة أبحاث السودان نفس التأرجح بين الجهد المشترك للفونج والعبداللاّب وبين جهد العبداللاّب المنفرد ولكن في شيء من التفاصيل والتباين(٢٢) وسأكتفي بذكر ثلاثة أمثلة لذلك.

ي. تشير الرواية الأولي إلي أن عبد اللّه جمّاع قدم على رأس قبائل جهينة من الشرق (أي الحجاز) إلى السودان ووجد عمارة دونقس زعيماً على مملكة النوبة المسيحية ونجح في إقناعه بإعتناق الدين الإسلامي لأن البلاد لا تحتمل دينين. فلما أعلن إسلامه قاتلا العنج والفونج (والنوبة المسيحيين) وانتصرا عليهم.(٢٣) وهذه الرواية تخلط بين ملك علوة وملك الفونج وتجعل الإسلام كالروايتين التاليتين هو القوة المحركة.

ك. وتقول الرواية الثانية إن عبد اللّه جمّاع حضر إلى السودان مع بعض المحاربين وأخذ يحارب سكانه مبتدئاً بدنقلا، وجد العنج في طريقه فانتصر عليهم وسار حتى بلغ النيل الأبيض وهناك تسامع الفونج بمقدمه فحضروا إلى سنّار فطلب عبد اللّه جمّاع منهم أن يختاروا بين الإسلام والحرب فأسلموا. ثم إشتركا في حكم البلاد. وتبيّن هذه الرواية وغيرها من الروايات أن سقوط علوة كان على يد العرب دون سواهم. (٢٤)

ل. وتوضح الرواية الثالثة أن عبداللّه جمّاع جاء عن طريق أبي حمد ثم

استقر في موضع يعرف بـ أب (أبي) زليق بالقرب من قرّى وأخذ عبد اللّه يتردد على ملكها الجحمان ثم تزوج ابنته أم كجيل. ولكن عبد اللّه لم يهتم بأمر زوجه أو مالها، بل اشتغل بما رأى من سلاح وعتاد عند الملك. وأخيراً قتل الملك واستولى على عرشه في رواية، وفي رواية أخرى أن الملك هرب خوفاً من بطشه فآل إليه الأمر. ثم ذهب عبد اللّه إلى ملك الفونج واتفقا على حرب ملك سوبا وقضيا على المسيحية.(٢٥) وزواج عبد اللّه جمّاع من ابنة الملك الجحمان ملك قرّي، رغم تشككنا في وجود مدينة بذلك الإسم قبل قيام سلطنة العبداللاّب، وعدم إنتقال السلطة سلمياً، له في تاريخ العلاقات بين العرب والنوبة ما يؤيده، ومن ذلك كيف أن المهاجرين من أبناء العرب ورثوا أماكن السلطة والقيادة عن أمهاتهم من بنات الملوك.

م. وتزعم الرواية الرابعة أن الفونج تزوجوا بنات الشيخ عجيب (ثاني ملوك العبداللاّب) في عهد عمارة دونقس وهكذا استولي على الحكم ومن بعدها أصابهم شيء من الضعف ولكنهم بقوا في السلطة مع الفونج: الملك عند الفونج والإمارة عند العبداللاّب.(٢٦) وتكاد هذه الرواية تقترب من الحقيقة عندما تذكر صراحة أن العبداللاّب قد أصابهم شيء من الضعف حتى سيطر عليهم الفونج.

نستنتج من المصادر الخطية ومن الروايات الشفاهية التي استعرضناها أن طبيعة الهجرة العربية في القرن الرابع عشر والدور الذي لعبته جهينة في تلك الهجرة ونظام الوراثة السائد بين النوبة عن طريق الأمهات والمناخ السياسي العام يؤكد ما ذهب إليه بروس الرواية "أ" من أن العرب كانوا يحكمون سودان وادي النيل عند ظهور الفونج. ويؤيد هذا القول رواية كونيق الرواية "ب" وبعض روايات العبداللاّب الخطية والشفاهية.

وقد جاء التناقض عندما لجأ العبداللاّب والمؤرخون لتبرير خضوع العبداللاّب لسيطرة الفونج حتى لا يذكروا صراحة الهزيمة التي لحقت بهم في أوائل القرن السادس عشر.

تشكك آركل[٢٧] في أسطورة الغزو المشترك هذه وانتقد ما جاء في **تاريخ ملوك سنَّار** من أن العرب والفونج تجمعوا عند جبل مويه. وأضاف أن قلة المياه في ذلك الموضع وبعده عن سوبا ووجوب عبور النيل الأزرق للوصول إليه تجعل هذه الرواية غير مناسبة. ويرى هولت[٢٨] أن ثمة خطأ قد نشأ من تشابه معنى كلمتي جبل الرويان وجبل مويه ولذا يرجح أن جبل الرويان هو مكان التجمع الذي انقض منه العرب على ما تبقى من مملكة علوة. وجبل الرويان مثل قرِّي، كان موقعاً استراتيجياً مانعاً تسهل منه السيطرة على تحركات البدو عبر أرض البطانة إلى حوض النيل أو عبره إلى صحراء بيوضة. وفوق ذلك كله فإن مقومات المدن المندثرة سواء أكانت جغرافية أم سياسية أم اقتصادية كثيراً ما تنتقل إلى المعسكرات التي نشأت بالقرب منها ثم انقضت عليها، فتعمر مستفيدة من مقومات المدن التي تم إسقاطها وخير مثل لذلك قصة أم درمان مع الخرطوم.[٢٩]

٢. مملكة العبداللاَّب:

تجمع أخبار العبداللاَّب أنهم من أصل عربي صريح، فيقول بروس أنهم من قريش[٣٠] ويروي بعضهم أنهم من الأشراف فتذكر مخطوطة باريس "د"[٣١] أن عبدالله جمَّاع القريناتي من (عربان القواسمة)، وترجع رواية الشيخ إبراهيم عبدالدافع "هـ"[٣٢] القواسمة إلى جهينة، وتنسب أقدم مخطوطة عبداللاَّبية "ح " عبدالله القرين إلى بطن من قبيلة رفاعة من جهة أمه وإلى الأشراف الحسينية من جهة أبيه؛ إلا أن الراوي يستدرك فيؤكد: "والصحيح في نسبه أنه من بني العباس من ذرية أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي".[٣٣] ولا تخرج روايات شعبة أبحاث السودان عن هذا المضمون إلا أنها تكثر من التفاصيل فتربط بعض الروايات عبد الله بالحسين بن علي بن أبى طالب،[٣٤] وتقول رواية أخرى إنه شريف من جهة أبيه وجهني من جهة أمه: "فإن جده الأكبر السيد الباقر تزوج بنت الشيخ عبد الله أب جهنة، أو الجهني زعيم قبيلة جهينة ورزق منها بالسيد رافع الذي أنجب عبدالله جمَّاع". فلما مات عبد الله الجهني اختارت القبيلة رافعاً زعيماً لها، ومن بعده آل الأمر إلى عبد الله جمَّاع، إلا أن رواية أخرى ترجح أن محمّد الباقر هو والد عبد الله وإن أمه بنت رافع، جد رفاعة. ولذا تتحدث هذه الرواية عن الرفاعية أخوال عبد الله.[٣٥]

نستنتج من هذه الروايات أن أحد المهاجرين العرب ممن يدّعون النسب الشريف تزوج في مجموعة قبائل جهينة أو رفاعة التي كانت تسكن السودان، واستطاع أحد أبنائه أو حفدته أن يصبح زعيماً لتلك القبيلة. ولعل الاختلاف الأساسي (عدا التفسير الذي تقدمه آخر رواية، إذ تجمع بين النسب الشريف والجهني والرفاعي) هو التأرجح بين قبيلتي جهينة ورفاعة.

وسبب هذا التأرجح أن النسَّابة السودانيين يطلقون لفظ جهينة في شيء من عدم الدقة على القبائل البدوية التي دخلت السودان ولا ترجع بنسبها إلى بني

العباس أو المجموعة الجعلية.

تحت لواء هذه المجموعة الجهنية تنضوي كثير من القبائل التي لا تربطها بجهينة القبيلة اليمانية أدنى صلة مثل رفاعة وفزارة والكواهلة وغيرهم. ولعل سبب الربط بين هذه المجموعات القبلية أن جهينة قد قامت بدور قيادي عند هجرة العرب إلى السودان ومن ثم بسطت لواءها على كثير من البدو. وفي واقع الأمر أن أجداد رفاعة كانوا يعيشون بالقرب من أجداد جهينة في كل من الحجاز وصعيد مصر وبلاد البجة، كما أن الطريق الذي سلكته جهينة إلى السودان يؤكد قدم هذه الصلة.(٣٦) ولابد أن يؤدي هذا الجوار الطويل إلى تزاوج وتحالف بين المجموعتين. وليس في رأيي ثمَّ خلاف جوهري بين الأصل الرفاعي والجهني إذ أن الأول يُكَون جزءاً من الثاني في المعنى العام، وإذا أردنا الدقة فإن العبداللاَّب من القواسمة وهم بطن من رفاعة كما تؤيد أشجار النسب عامة، وأن رفاعة تكون واحدة من المجموعة الجهنية.

أما عن الأسماء التي تواترت في هذه الروايات فليس لدينا ما نراجعه بها سوى أنه ليست هناك أي صلة مباشرة بين جهينة وعبدالله بن يونس الجهني الصحابي الجليل، إلا تلك الصلة التي تربط قبيلته وقبيلة جهينة بقضاعة. وفي رأيي أن ورود هذا الاسم في أخبار العبداللاَّب إنما هو صدى لمحاولة النسَّابة ربط القبائل السودانية بأصل شريف أو بشخصيات إسلامية ممن اشتهروا في صدر الإسلام.

وفي انتساب العبداللاَّب إلى الأشراف، ما يعيد إلى الأذهان ظاهرة إدعاء النسب الشريف بين أغلب الأسر الدينية السودانية. ولعلنا نجد في تواتر ما ترويه الأخبار عن اهتمام عبد الله جمَّاع بنشر الإسلام عند محاربة العنج ما يوحي بأن نواة تلك الأسرة كانت تجمع بين الزعامة القبلية والدينية. وقد استمرت هذه الروح الدينية وهذا النشاط الدعوِّي في مجهودات ابنه عجيب الكافوته الذي اهتم بتعيين القضاة وبتشجيع الفقهاء ورجال الطرق الصوفية

بإغداق المال عليهم حتى لقب بال:"ولي السلطان" وصارت قبته مزاراً يقصده المريدون. ومما قيل فيه شعراً:

مُنُو ركَّاب العَواتى وهزَّاز السيوف الَحَدْ
غير الشيخْ عَجيب الفَتّحْ دُرُوب الحَجْس
شَريفي أصيلْ ونَشَر الشريعةْ عَدِيلْ
منو الطيّع الناس الإيمانَ باقي قليلْ
غير الشيخْ عجّيب ركَّاب عَوَاتي الخيلْ
وينو القَلْبوْ ثَابتْ وبي اليقين مليانْ
منو الْشّوفْتو تَلّوعْ الفرسانْ
غير الشيخ عجيب النَّادِر ولي وسلطانْ.(٣٧)

يلاحظ أن المصادر الخطية لا تذكر شيئاً عن الطريق الذي سلكه أجداد العبداللاَّب أو جهينة عند دخولهم السودان. ولكن يتضح من روايات العبداللاَّب السماعية أن أجدادهم قدموا من ثلاثة طرق: الأول محاذٍ لنهر النيل عن طريق دنقلا، والثاني عبر صحراء العتمور عن طريق أبي حمد، والثالث من الحجاز عن طريق سواكن. ومن دروب الصحراء الشرقية تدفقت جهينة إلى أرض المعدن وشاركت هي ورفاعة البجة موطنها، ثم تشاجرتا في صحراء عيذاب في عام ١٢٨١م. وعن طريق نهر النيل صاحبت جهينة الجيوش المملوكية التي غزت بلاد النوبة وتكاثرت بطونها وحلفاؤها بين صعيد مصر وحدود الحبشة حتى غلبوا النوبة، ثم تغلبوا على علوة في نحو أواسط القرن الخامس عشر.

وليس لدينا ما نستأنس به في ترجيح هذا التاريخ سوى النذر اليسير من الإشارات غير المعتمدة. يزعم أن عبدالله جمَّاع تزوج عائشة بنت الشريف حمد أبو دنانة الذي استقر في سقادي الغرب بالقرب من المحمية في سنة ١٤٤٥م

ومنها رزق بابنه عجيب الكافوتة الذي عمر طويلاً.[٣٨] وذكر في أحدث مخطوطتي العبداللاَّب أن عبد اللَّه جمَّاع حكم نحو ستين سنة وأنه قد مات في أوائل القرن التاسع الهجري - ولا شك أن هذا تقدير يبعده كثيراً عن وقت حربه مع عمارة دونقس في أوائل القرن السادس عشر، ولعل الكاتب قصد أوائل المائة التاسعة.[٣٩] وجاء في أخبار الفور التي جمعها (كونيق) أن أحمد المعقور لما بسط نفوذه على بلاد الفور في نحو سنة ١٤٤٥م كانت كردفان تحت سيطرة العبداللاَّب.[٤٠] ومهما يكن من أمر فإنه ما أن استتب الأمر للعبداللاَّب ووطدوا أساس ملكهم حتى اشتبكوا مع الفونج ربما حول حقول المرعى في الجزء الجنوبي من الجزيرة وانتهى الصراع بهزيمة العبداللاَّب وقبولهم مبدأ التعاون مع الفونج في إدارة شئون الجزء الشمالي من البلاد وذلك في بداية القرن السادس عشر.

تقف ندرة الأخبار عن هذه الفترة المبكرة من حكم العبداللاَّب حجر عثرة دون رسم صورة متكاملة لنظام الحكم. ويبين اتخاذ قرِّى حاضرة للمملكة الجديدة أهمية القبائل العربية في إنشاء الدولة الجديدة وتدعيمها. فعند جبل الرويان الواقع شرق قرِّي، تجمعت القبائل العربية التي هزمت آخر ملوك علوة، ومن قرِّي التي تقع على حافة منطقة الأمطار الاستوائية الغزيرة والتي يلجأ إليها البدو بماشيتهم في فصل الخريف، تمكن العبداللاَّب من السيطرة على عربان البطانة وفرضوا عليهم الإتاوات التي تمكنهم من دفع نفقات إدارة البلاد. ومنها سيطروا على الطرق التجارية (أو درب الجمل) الذي كان يسير متابعاً لحوض النيل شمالاً وجنوباً ويتفرع منه شرقاً إلى سواكن. ومن غرب قرِّي يسير طريق آخر عبر صحراء بيوضة إلى مصر وكان للعلاقات التجارية بين مصر والسودان أهمية خاصة مما حدا ببروس أن يستنتج أن مملكة العبداللاَّب كانت تابعة اسمياً لمصر.[٤١] ورغم أهمية الصلات التجارية بين البلدين فلم أجد ما يؤيد هذا الاستنتاج.

أما في المناطق التي انفتح فيها العرب على الوطنيين وصاهروهم وشاركوهم سبل العيش المحلية فقد ظهر نتاج جديد تغلب عليه الديانة الإسلامية واللغة العربية ثقافياً. وتمكن العرب، سياسياً، عن طريق الوراثة أن يبلغوا مواطن السلطة ويكونوا عدداً من الزعامات لا تختلف في جوهرها عن إمارة بني الكنز. ويبدو لي أن العبداللاَّب قد استقطبوا هؤلاء الزعماء في حربهم ضد العنج، فلما انتصروا كما أرادوا أبقوا على تلك الزعامات. وظلت العلاقات التي تربطهم بملك العبداللاَّب الذي يبارك تعيينهم لا تختلف عن الصلة التي تربط بين شيوخ البطون وزعيم القبيلة الأكبر. وهذه الزعامات المحلية تعكس التجمعات القبلية الكبيرة مثل الجعليين والميرفاب والشايقية والحكماب التي اقترنت بأسماء مكوك(٤٢) أو ملوك محليين. وهذا يؤكد ما ذهب إليه بروس عندما قال أن عدداً من مشايخ القبائل كان يساعد العبداللاَّب في حكم البلاد.

وتتضح الصورة أكثر من النظام الذي كان سائداً في عهد الشيخ عجيب المانْجُلُك عندما عين عدداً من المشايخ على قبائلهم وأغدق عليهم الطواقي (جمع طاقية) وهي شارات الملك. فمنهم مشايخ أو مكوك الحمدة والجموعية والسعداب والميرفاب والرباطاب والشايقية وأرقو، وكلهم على نهر النيل، والغديات في كردفان، والحمران والنابتاب والحلنقة والكميلاب وغيرهم بمنطقة الشرق.(٤٣)

عند بداية القرن السادس عشر، وبعد هزيمة العبداللاَّب على يد الفونج، انتهى الكيان السياسي المستقل لدولة العبداللاَّب التي كان قيامها تعبيراً وتأكيداً لغلبة الثقافة العربية الإسلامية على الجزء الأوسط من سودان وادي النيل. وفي إطار مملكة الفونج الإسلامية ظل العبداللاَّب يحكمون الجزء الشمالي من تلك المملكة ويرعون نشر الثقافة العربية الإسلامية.

هوامش الفصل الثاني

(١) **طبقات ود ضيف اللّه** : حاشية ١٠ ص ٤٠.

(2) Holt; " Sudanese Historical Legend: The Funj Conquest of Suba" *B.S.O.A.S*, XVIII (1960), 1-12.

(٣) **مخطوطة كاتب الشونة** ، تحقيق الشاطر بصيل عبد الجليل.

(٤) يستعمل بروس هنا الاسم الشائع في أيامه للدلالة على أجداد ود عجيب وأرجح أنه يعني عبد اللّه جمّاع أول ملوك العبداللاّب.

(5)Bruce, VI, 369-71.

(6) *Ibid*, VI, 370.

(7) De Cadalvene et de Breuvery, 1,200.

(٨)لم يذكر ود ضيف اللّه مؤلف أقدم كتاب سوداني شيئاً عن هذه النقطة بل اكتفى بقوله: "أعلم أن الفنج ملكت أرض النوبة وتغلبت عليها في أول القرن العاشر سنة عشرة بعد التسعمائة وخطت مدينة سنار خطاها الملك عمارة دونقس": **طبقات ود ضيف اللّه**، ص٣٩.

(٩) أرجع لتفاصيل أكثر عن حياة هؤلاء في مقالي " المصادر السودانية قبل المهدية"، **مجلة الدراسات السودانية**، المجلد الثالث - العدد الأول ،٣٦- ٧١

(١٠) **مخطوطة كاتب الشونة**، ٦ - ٧.

(١١) مخطوطة باريس، أنظر أيضاً **مخطوطة كاتب الشونة** ، ١٢٨ - ١٢٩,

(١٢) نعوم شقير ، ٧٣٦,

(١٣) مخطوطة المتحف البريطاني، ورقات (ب - ٣).

(١٤) **تاريخ ملوك سنار** ، ١-٢.

(١٥) نفس المصدر، ١ - ٢.

(١٦) اسمها: واضح البيان في ملوك العرب بالسودان .

(١٧) تشابه هذه المخطوطة ما نشره بن A.E.Penn, "Traditional Stories of the Abdallab Tribe", *S.N.R.*,XVII (1934) , 58, 82.

(١٨) ملوك العبدلاب، ٢ .

(١٩)المصدر السابق، ٢

(٢٠) هو الحكمدار أحمد باشا أبو ودان ١٨٣٥-١٨٤٣م

(٢١) واضح البيان، ١-٣

(٢٢) أنظر تفاصيل هذه الروايات في أحمد عبد الرحيم نصر: ١٤ - ٢٣

(٢٣) المصدر السابق ص ٥ - ١٦ أو الشريط رقم٢٣٠ (KVI) شعبة أبحاث السودان.

(٢٤) الشريط ٤٠٢ (KVI)شعبة أبحاث السودان.

(٢٥) الشريط K VI.،١٠٠،٧،٣،٢،١

(٢٦) أحمد عبد الرحيم نصر ، ١٠.

(27)Arkell, " Fung Origins" *S.N.R.*, XV, 1932, 211-212.

(28) Holt " op. cit" *B.S.O.A.S.*, XXIII, 10.

(29) *Ibid, B.S.O.A.S.* XXIII, 11 - 12.

(30) Bruce, IV, 369.

(٣١) مخطوطة باريس، ٤ .

(٣٢) نعوم شقير، ٣٨٦.

(٣٣) ملوك العبدلاب، ٢ - ٣

(٣٤) أحمد عبد الرحيم نصر، ١٤ - ١٥ .

(٣٥) المصدر السابق: ١٤ - ١٥

(36)Yusuf Fadll Hasan, *Arabs*, 154-7, 186.

(٣٧)أحمد عبد الرحيم نصر ،) ١١٧-١١٨.

(38) Trimingham, *Sudan*, 196 - 223.

(٣٩) واضح البيان، ٣ ولا شك أن هذا المصدر قد أخطأ عندما زعم أن الشيخ عجيب مات في سنة ١٤٧٤م .

(40) De Cadalvene et de Breuvery, 1,200.

(٤١) واضح البيان، ٢ .

(٤٢) جمع مك، وهي تحريف لكلمة ملك، تطلق على مشايخ القبائل أو ملوكها وغيرهم من حكام الأقاليم في عهد سلطنة الفونج .

(٤٣) واضح البيان، ٢ .